الصورة بين المفهوم النقدي القديم والحديث

د . محمد علي جودر ــ كلية التربية العجيلات ـ جامعة الزاوية

المقدمة :

الصورة في اللغة : هي لغة الحواس والشعور ، ولكنهما لغة ممزوجة بالحالات النفسية والشعورية عند المرء ، الصورة تقضي بإعطاء الفكرة المجردة شكلا محسوسا ، فترتدي الفكرة صورة تحدد شكلها ولونها وبروزها .

دور هذه العملية يمكن أن يلخص كلما كانت العلاقة بين الحقيقتين المتجهتين نحو الوحدة بعيدة وصحيحة ، كانت الصورة قوية وشاعريتها أرفع ، وقدرتها التعبيرية والشعورية أعم .

فالأديب مضطر أن يلجأ إلى وسائل أخرى غير مباشرة ليوقظ بها النفوس ، ويهيج بها العواطف ، وهذه الوسائل التي يحاول بها الأديب نقل فكرته وعاطفته معا إلى قرائه أو سامعيه تدعى الصورة الأدبية ،وهذا الغرض إنما يكون بالخيال ، فالخيال إذا أساس الصورة الأدبية مهما تكن درجته الفنية ، وقد تكون في وجهها الاخر باعثا لمحاولة بهذه الصورة الأدبية التي ترجع إلى أصلين مهمين من مكونات الصورة ، الخيال والعبارة الموسيقية ، أما الخيال فمن عناصره التشبيه والاستعارة والكناية والطباق وحسن التعليل ، وأما العبارة فمن خواصها جزالة الكلمة ، وحسن جرسها وسلامتها من العيوب البلاغية والنحوية .

مفهوم الصورة الفنيةبين القديم و الحديث :

الصورة عند النقاد القدامى :

عبر النقاد العرب عن الصورة بكل وجوه البيان ، من مجاز وتشبيه و استعارة وكناية ، من ذلك مـــــا عبر به الجاحظ ــ (ت 225 هـ) في تعريفة بشأن الشعر و طبيعةفن القول فيقول : " و المعاني مطروحة في الطريق ، يعرفها العربي ، و العجمي ، و البدوي ، و المدني ، و إنما الشأن في إقامة الوزن ، و تخير اللفظ ، و سهولة المخرج , و كثرة الماء ، و في صحة الطبع ، و جودة السبك ، و إنماء الشعر صناعة و ضرب من النسخ و جنس من التصوير " (1) .

فقول الجاحظ : إنماء الشعر صناعة من غير تقييد لنوع هذه الصناعة ، يرسخ رأيه أن الشعر لقاح الوعي و ثمرة الدرية تجري علي وفق قوانين الحكم ، في إخراج عناصره

، كما تتحكم في أي لون من ألوان الصناعة ، خبرة و روية ، وعندما يحدد الجاحظ الصناعة بضرب من النسج يأخذ مفهوما هذا طابعه من شكل النسج الذي مادته الخيوط و الأصباغ ، ومهارته التركيب و التنسيق ، وثمرته الصور التي كانت دقيقة ، يغتلي فيها ريب الناظر ، حتى يقرأها باليد حجما و حركة و لونا .

أمـــا ابن رشيق القيرواني ت (456 هـ) في كتابة العمدة مثل المعنى بالصورة و اللفظ بالكسوة ، فإن لم تقابل الصورة الحسناء بما يشاكلها ويليق بها ، من القبول فقد بخست حقها ، و تضاءلت في حين مصيرها (2) .

وعلي هذا فإن اللفظ عندما يؤكد أي وسيلة في السمع ، تكون كالصورة في البصر ، وكما وردت

أيضاً عند ابن الأثير ت (638 هـ) في قوله مفصلا أنواع التشبيه ، تشبيه معنى بمعنى ، و صورة بصورة ، و صورة بمعنى (3) . و علية فالصورة هنا تدل على المعاني الحسية ، والمعنى يدل علي المعاني المجردة ، و بذلك فإن الصورة هي الإيحاء .

أما قدامة بن جعفر ت (337 هـ) فالصورة عنده تعني الشكل المحسوس و الملموس الذي يلجأ إلية الشاعر ، ليجسد الأفكار المجسدة في نفسه التي تدرك بالعقل يقول : إذا كانت المعاني للشعر بمنزلة المادة الموضوعة ، و الشعر لها كالصورة ، كما يوجد في كل صناعة , من أنه لا يدخلها من شيء موضوع ، يقبل تأثير الصورة مثل الخشب للنجارة و الذهب للصياغة (4).

فالصورة في مفهوم ابن جعفر ، عبارة عن صناعة كباقي الصناعات الأخرى ، إلا أن صناعة الشعر تقوم على المعاني ، بينما الصناعات الأخرى تقوم علي المادة ، أما النجار و الصانع فيعملان في مادة الخشب و الفضة .

أما أبو هلال العسكري ت (395 هـ) فيقول في معرض حديثه : عن الصورة " وما يعرف المتقدم معنى شريفاً إلا نازعه فيه المتأخر , فطلب الشركة فيه إلا بيت عنترة (5) .

وترى الذباب بها يغنى وحده غردا كفعل الشارب المترنم

هزجا يحك ذراعه بذراعه قدح المكب على الزناد الأجذم (6)

استخدم أبو هلال العسكري هنا المعنى بدلا من الصورة ، ولكن القصد واضح ، فليس في البيت معني معجز ، ولكن فيه صورة نادرة ، و دقة الصورة وندرتها كانتا سببا في استقصائها على السرقة و هو ما فطن له العسكري و أدركه وليس المعنى وحده .

أما عبد القاهر الجرجاني ت (471 هـ) فإنه تباين رأيه مع هذه الآراء , حيث ثار عليها ويتبين في جلاء ووضوح عبارة , أن الجمال في الشعر يكمن في إخفاء الاستعارة حسنا ، حتى إنك تراها أغرب ما تكون , إذا كان الكلام قد ألف تأليفا ، و إن أردت أن تفصح فيه بالتشبيه خرجت إلى شيء تعافه النفس , و يرفضه السمع (7) ويقول عبد القاهر الجرجاني في تعريف الصورة :

" فإنك تجد الصورة المعمولة فيها , كلما كانت أجزاؤها اشد اختلافا في الشكل والهيئة , كان التلاؤم فيها مع ذلك أتم ، و الائتلاف أبين ، كان شأنها أعجب ، و الحذق لمصورها أوجب (8) .

ويعد فهم الجرجاني هذا فهما جيدا للصورة , رغم تقدمه في الزمن , ويرى الصورة بأنها تمثيل و قياس , معنى عقلي بمعنى حسي , و يكون الاختلاف في الصورة دون المعنى فيقول :" ولما وجدنا في عقولنا اختلافاً في المعنى ، الذي يصاغ بصورتين مختلفتين قلنا : للمعنى في هذه الصورة غير صورته في ذلك , بمعنى أن المعنى يبقي واحداً و أن الذي يختلف الصياغة و الصورة , ولو أخذ المعنى شاعر متأخر على متقدم ، وأورد على صورته و هيئته لما كان عند النقاد وجه للمفاضلة بينهما ، لأنه لم يقع أن كرر المعنى مرتين لا غير (9) ، وفي وجهة نظر الجرجاني أن الصورة شيء مستعمل و مشهور في كلام العلماء , مستدلا بقول الجاحظ : إنما الشعر صياغة و ضرب من التصوير (10) .

وعلي هذا فإن هذا اللفظ عندما يؤكد أي وسيلة في السمع , تكون كالصورة في البصر , وكما وردت _ أيضا عند ابن الأثير ت (638 هـ) في قوله مفصلا أنواع التشبيه , تشبيه معنى بمعنى , و صورة بصورة و معنى صورة بمعنى (11) .

وعليه فالصورة هنا تدل على المعاني الحسية , و المعنى يدل على المعاني المجردة وبذلك فإن الصورة هي الإيحاء .

وقد كانت الصورة مجال الحكم في كل عمل أدبى , و إن لم يشر إلى ذلك صراحة في الدراسات النقدية العربية , فحين العودة إلى كتب النقد القديم , وكتب الطبقات ولا سيما طبقات فحول الشعراء , و الموشح , سنجد الانتقادات التي وجهت إلي الشعراء إذ كانت الصورة تأخذ مكانها البارز في المفاضلة على الصورة الشعرية , مقررا في البداية أن السرقات لا تقع إلا فيها , و المفاضلة لا تقوم إلا على أساس الصورة (12) .

ويظهر اهتمام القدماء فيها يتعلق بالصورة , في وضع التشبيه و المعنى وخلوه من الغموض والإبهام , كما حددوا غرض الاستعارة في شرح المعاني و فضل الإبانة منه

أو تأكيده , و المبالغة فيه أو الاشارة إليه بالتعليل عن اللفظ , أو تحسين المعنى لمعرفة الذي يبرز فيه , وهذه الأوصاف موجودة في الاستعارة المصيبة , ولو أن الاستعارة المصيبة تتضمن مالا تتضمنه الحقيقة , من زيادة فائدة لكانت الحقيقة أولى منها استعمالا (13) .

و إذا كانت الاستعارة تعد ركيزة من ركائز الكلام , وعليها يعول في التصرف والتوسع , فإن مهمتها التوصل إلى تزيين اللفظ , وتحسين النظم والنثر , نجد النقد القديم يركز على غاية الوضوح والإبانة , من التشبيه والاستعارة كليهما ، وعد النقاد القدماء أفضل الكلام وأحسنه " ما دخل الأذن بلا إذن " و أن مهمة التشبيه هي زيادة وضوح المعنى ، و تأكيده هو أقرب إلى مفهوم الصورة في النقد الحديث .

من خلال الآراء السابقة نخلص إلى القول : إن الجرجاني كان من أكثر النقاد العرب فهما للاستعارة وقيمة للتشبيه , وندرك أن التشبيه يعمل عمل السحر في تأليف المتباينين حتى يختصر بعد ما بين المشرق والمغرب , و يجمع ما بين المشأم * و المعرق * و هو يريك للمعاني المتمثلة بالأوهام شبها في الأشخاص الماثلة والأشياء القائمة ، وينطق لك الأخرس ، ويعطيك البيان من الأعمى ، فيأتيك بالحياة والموت مجموعين ، و الماء والنار مجتمعين (14) من خلال هذه الآراء نلحظ أن الطبيعة الإنسانية , تلجأ دائما إلى الوضوح و الجلاء و الانكشاف وتنفر من الحيرة والإبهام والغموض وإن التشبيه والاستعارة عند الجرجاني يقومان على امور جديدة معقدة منها التفسير والإبانة والتناسب في خفاء فني بعيد عن التعقيد والاضطراب وهكذا يتضح لنا أن جل النقاد القدامى يؤكدون على فكرة الترابط باسم البحث عن الصفة الجامعة بين المشبه والمشبه به .

مفهوم الصورة في النقد الحديث:

ظل الاهتمام بالصورة الفنية هاجس النقاد المحدثين لما لها من أهمية في الكشف عن الجوانب الإبداعية لدى الشاعر, وتبرز من خلالها موهبته وفاعليته وهي ماتميزه عن غيره من الشعراء المبدعين احد الباحثين " وعادة ما نذهب إلى القول إن خيال الشاعر هو الذي يمكنه من خلق قصائد تنسج صورها من معطيات الواقع ولكنه يتجاوزها حرفية هذه المعطيات ويعيد تشكليها سعيا وراء تقديم رؤية جديدة متميزة للواقع نفسه " (15) .

وقد أوجد الباحثون المحدثون علاقة وثيقة بين الصورة الفنية والخيال وكذلك علاقة هذه الصور بالفنون الأخرى , وبهذا توسع مفهوم الصورة ليستوعب كل فنون العصر

ذلك لأن طبيعة الفن التركيبية ضرورة سيكولوجية , من حيث إن الفن يخرج اللاشعور المتناقض المفكك إلى الشعور المنظم الواحد , لا علاقة لهذا التفكيك أو التحليل بما يقال من رعاية تفاصيل الاشياء والنظر إليها فربما يتم دون احتفاء كبير بالتحليلات , ويكتفي الشاعر ببيان مواطن الاشياء من حيث هي كل (16) يقوم مفهوم الصورة عند المحدثين أساسا على الخيال الشعري , فالصورة هي أداة الخيال ووسيلته الشعرية ، و الدلالات العربية القديمة لهذه الكلمة يمكن أن تستنتج ما تعرفه حديثا بالصورة الذهنية " أي أنها تشير الي مادة الخيال لا إلى ملكه نفسها , ويبدو أن هذه الصلة هي التي أباحت توسيع الدلالة القديمة على اساس مجازي مقبول , تنتقل فيه دلالة الكلمة من الجزئية إلى الكلية "(17) .

ويرجع اهتمام النقاد قديما وحديثا بالصورة لما لها من أهمية كبيرة في الكشف عن جوانب الإبداع في الآداب المختلفة في شتى لغاتها " فالصورة الدلالية لها دورها الجمالي والنفسي المهم في التعبير الأدبي وكثيرا ما اعتمد الأدباء عليها شعراء كانوا أو كتابا " (18) .

وقد ألمحنا إلى اتساع مفهوم الصورة آنفا ليشمل كل صور الفن و الأدب ، و في المصطلحات الأدبية الحديثة حاول النقاد وضع مصطلحات وتعريفات للصورة ، فهناك الصور المتخيلة, والصور المجازية , والصور الذهنية (19) واذا حاولنا إيجاد تعريف للصورة الأدبية في الشعر فيقتضي الأخذ في الاعتبار خصوصية اللغة و اقترابها بالتراكيب اللغوية " فهي تركيب مخصوص لنوع من التفسير يعمل فيه الخيال ويقوم الربط بين التصور الخيالي و الشيء المحسوس أمامنا (20) .

ويتطلب الحديث عن أهمية الصورة الشعرية منّا النظر إليها باعتبارها الشكل الفني " الذي تتخذه الألفاظ والعبارات , بعد أن ينظمها الشاعر في سياق بياني خاص ، ليعبر عن جانب من جوانب التجربة الشعرية الكاملة في القصيدة, مستخدما طاقات اللغة وامكاناتها في الدلالة, والتراكيب, والإيقاع , والحقيقة, والمجاز, والتضاد, والمقابلة ، والتجانس وغيرها من وسائل التعبير الفني ، والألفاظ و العبارات هي مادة الشاعر الأولى , التي يصوغ منها ذلك الشكل الفني, أو يرسم بها صورة شعرية (21) .

النتائج :

1- إن المفهوم الجديد يوسع من إطار الصورة , فيتجاوز بها المفهوم البلاغي المصطلح عليه قديما .

2- و إن الهدف من هذه الدراسات التي خصصها المحدثون في مجال الصورة الفنية هو تمكين المعني في النفس بواسطة التأثير .

3- المعاني اللغوية و المجازية للألفاظ و جرسها الموسيقي وحسن تأليفها كل ذلك عناصر مهمة ، تدخل في تجويد الصورة الفنية ، بل هي الخيوط القوية التي تشد الصورة وتحكم ربطها بما قبلها وبعده ربطا قويا(22).

4- " فالصورة كلام مشحون شحنا قويا يتألف عادة من عناصر محسوسة ، خطوط ، ألوان حركة ، ظلال .

5- أن النقد الحديث لا يتفق أن تكون الصورة في الشعر تعتمد الحس أساسا لها وتقتصر على إثبات العلاقة بين المشبه و المشبه به .

6- إن وجهات النظر بين النقاد القدامى و المحدثين قد تباينت حول مفهوم الصورة ، فالنقد الحديث ينظر إلي الصورة بأنها الصيغة اللفظية التي يطرح فيها الأديب فكرته ويصور تجربته ويظهر اهتمام النقد الحديث بالخيال واضحا جليا ، ويعتبره الأساس في تكوين الصورة الشعرية ، وهو لا يحد من حرية الشاعر ولا يقيدها ، بل يفسح له المجال ويطلق له العنان ليحلق في أجواء بعيدة , ويبتكر ويبتدع صورا خيالية أخاذة ، تدرك بالإيحاء لخفاء معناها .

7- أن النقد الحديث يجعل للشاعر الأمر مفتوحا في حقل استخدام اللغة , و تسخيرها للتعبير عما يجول في خاطره , وله أن يتطور باللغة ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

8- يشترط النقد الحديث أن تكون الصورة ذات إيحاء كبير , لها القدرة على خلق المتعة و الإحساس بالجمال .

9- أن النقاد القدامى فقد اقتصر مفهومهم للصورة الفنية على التشبيه و الاستعارة بأنواعها معتمدة في ذلك على " الصلة الوثيقة بين الصورة و الشعر , باعتبارهما من الخصائص النوعية التي تميزه عن غيره .

10- أن الصورة كانت تفرض نفسها على وعي الناقد القديم ,أثناء بحثه القضايا الأساسية التي شغلته مثل الموازنة و السرقات , كما كانت تفرض نفسها عليه في محاولة تتبع ما حققه الشعراء من اختراع أو ابتكار أو ابتداع (23) .

11- إن المفهوم الجديد يوسع من إطار الصورة , فيتجاوز بها عن المفهوم البلاغي المصطلح علية قديما .

الهوامش :

(1)الحيوان . ج 1 . للجاحظ . تحقيق عبد السلام هارون . ط 3 بيروت . لبنان . ت 1969 . ص . 7 .

(2) ينظر : العمدة , ج 1 في محاسن الشعر و ادبة و نقده : لابن رشيق القيرواني , ط1 , أمين هندية , ص27 .

(3) ينظر : المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر . لابن الاثير . ط . نهضة مصر . القاهرة . د ت . د ط . 153 .

(4) ينظر : نقد الشعر لقدامة بن جعفر . تحقيق عبدالمنعم خفاجي . ط 1 . ت 1965 . ص .28 .
(5) الصناعتين لأبي هلال العسكري . تحقيق محمد البخاري . ت 1986 . بيروت . لبنان . ص . 223 .
(6) ديوان عنترة : دار صادر . بيروت . لبنان . ص . 20 .
(7) ينظر : العمدة , ج 1 في محاسن الشعر و ادبة و نقده : لابن رشيق القيرواني , ط1 , أمين هندية , ص27 .
(8) ينظر : دلائل الإعجاز _عبد القاهر الجرجاني _ تحقيق محمد رشيد رضا _دار المعرفة _ بيروت . ص 346 .
(9) ينظر : المرجع نفسه . ص . 246 .
(10) اسرار البلاغة عبد القاهر الجرجاني . تحقيق . هدارة . الكتاب العربي . ص . 127 .
(11) ينظر : دلائل الإعجاز . ص . 509 .
(12) ينظر المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر لابن الاثير ط . نهضة مصر . القاهرة . د . ط . ص . 153 .
(13) ينظر المرجع نفسه , ص 268 .
(14) المرجع نفسه . ص 268 .
* المشأم : من اتى من الشام . و المعرق : من اتى من العراق .
(15) ينظر : أسرار البلاغة . ص . 111 .
(16) الصورة الفنية في التراث النقدي و البلاغي عند العرب . جابر أحمد عصفور . دار التنوير للطباعة و النشر . ط 2 . 1983 . ص 14 .
(17) ينظر : الصورة الأدبية . ص 13 .
(18) الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب _ جابر احمد عصفور _ دار التنوير للطباعة والنشر _ ط 2 _ ت1983 ، ص 15 .
(19) الكتابة و الإبداع : عبدالفتاح أبو زائده . ط 1992 . الدار الاندلسية للطباعة . ص 61 .
(20) ينظر : المصطلحات الغربية في اللغة العربية . مجدي وهبة . بيروت ص32 .
(21) ينظر : المرجع نفسه . ص 48 .
(22) الاتجاه الوجدان ص 435 .
(23) ينظر : الصورة في الشعر العربي في القرن الثاني الهجري دراسة في أصولها وفروعها _ دار الاندلس _ بيروت _ لبنان _ ط3 _ 1983 ، ص 25 .